المذكّر والمؤنّث بين اللّغة والدّين والمتخيّل.

كريمة بوعامر●

الملخّص

تتجاوز مسألة التّذكير والتّأنيث المجال النّحوي، لتمثّل محورا مهمّا من محاور المجالين الدّيني والأسطوري.

وتتمظهر قضيّة المذكّر والمؤنّث من خلال عدّة جدليّات:

1. جدلية الأصل والفرع: لم ترتبط فكرة الأصل والفرع بالجانب اللّغوي فقط، بل كانت محطّ جدل في المخيّلة الأسطورية، وبذلك طرحت إشكاليةالرّتبية في الوجود، الّتي انبثقت عنها معضلة وهمية محورها الصّراع بين الطّرفين-الذكر والأنثى- لتثير جدلية السّلطة والتسلّط. ولكن النّص القرآني فصل في مسألة الأصل والفرع بالحجّة والبرهان.

2. جدليّة التعظيم والإقصاء: يعد تعظيم الأنثى ومحاولة إقصاء الذّكر، أشبه بالرّد على المسألة النّحوية التّالية: أصل الاسم أن يكون مذكّراوالتّأنيث فرع، بحكم أنّ المذكّر أسبق في الوجود من المؤنّث. ليفصلالنّص القرآني في ذلك مبيّنا أنّهما متكاملان وبينهما توافق وانسجام، وكلاهما يمثّل مركزقوّة، تزوّد الكون والوجود بطاقة الاستمرارية مع التّركيز على دور المرأة في المجتمع وضرورة الحفاظ على حقوقها.

3. جدليّة الانصهار في الآخر ونفي الذّات أم إثبات الذّات ومواجهة الآخر؟

فهل تؤسّس الأنثى لغتها أم تكتب بلغة الذّكر، وتلك عمليّة صعبة، ورغم ذلك أثبتت المرأة قدرتها على مواجهة التّحديّات، لإنشاء لغة مؤنّثة، لتصبح الأنوثة فعلا من أفعال التّأليف والإنشاء والقراءة والتّلقي.

لطالما استحوذ علم النّحو والصّرف عموما على إشكالية التذكير والتأنيث، بوصفها مسألة أساسيّة في فهم اللّغة، ولكن بالبحث والتّنقيب في جذور الثنائية نقرّ بشدّة ارتباطها بالمتخيل وبالمجال الديني.

ما جعل روّاد اللّغة في العصر الحديث، يصنّفونها ضمن الاطروحات المعقدة، لذا فهي تحتاج إلى فيض من الاسئلة والمساءلة.

إنّ أوّل إشكال يصادفنا في مسألة التذكير والتأنيث، يتمثّل في مبدأ الأصل والفرع، فأيّهما الأصل ومن ينتمي إلى الفرع؟

●أستاذ مساعد أ،كلية الآداب و اللغات،جامعة البويرة.

إنّ كلمات النّص القرآني تكشف المتحجّب، وتترجم الحقائق الكونية والغيبية، وتزيل الغموض المحيط بالمسائل العلمّية العالقة. لذا لا جدال في أنّ ما ورد في كتب التّفاسير القرآنية، يعبّد الطريق السوّي لمسار البحث، للتمكن من الفهم والإفهام، والإبانة عن عمق الظّاهرة قيد الدّراسة والمعاينة. وقد أشار النص القرآني إلى جدلية المذّكر والمؤنّث، جملة وتفصيلا قال الله عزوجل:" **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**"سورة البقرة، الآية 35.

لو تفحصنا عبارة" أنت وزوجك؛ نرى أن الضمير الظاهر أنت تأكيد للضمير المستتر، ليعطف عليه" وزوجك"، أي يقصد حواء بالمدّ، وكان خلقها من ضلعه الأيسر[1] أي تفرعت عنه.

والملاحظ أنّ الله عزوجل، يوجّه الخطاب إلى آدم عليه السّلام، بصفة أوّليّة، ويتكرّرذلك في قوله: "**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ**" سورة طه،الآية 117

يشير الله عزّوجل إلى أصل الخلق-خلق البشر- في قوله عزّوجل: "**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**" سورة آل عمرن الآية 59 .

إن الله عزوجل:" خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى وخلق حواء من ذكر"[2]وآدم عليه السلام أول الخلق أجمعين، وله صفة الأسبقية في الوجود، مقارنة مع حواء إذ خلقت بعد خلق آدم، متّخذة بذلك صفة البعدية والفرعية في الآن ذاته، وتلك حقيقة كونية، انبثقت عنها مسائل جدلية لا تزال تثقل كاهل الفلاسفة والمفكرين في مختلف المجالات، كمجال القانون والتشريع، والمجالين الاجتماعي والنّفسي، والمجال الديني وغيرها.

قضيّة الأصل والفرع بالغة الأهمية، توجّه التّفكير البشري وتؤسسه. لذا وردت واضحة في النّص القرآني، وتتبين أكثر في قوله عزّوجل: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** "سورة النساء-الآية 01.

يعرض الله عزوجل حقيقة خلق البشرية جمعاء، موظفا تقنية التّكثيف التّصويري؛ صورة خلق آدم عليه السّلام صورة خلق حواء صورة مكثفة لخلق البشر لا تنتهي إلا بزوال الكون والوجود.

لقد طرحت أسئلة كثيرة حول علة الأصل والفرع؛ ما المقصدية من خلق آدم أولا؟

---

[1].ينظر: جلال الدّين محمد بن أحمد المحلّي وعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تفسير الجلالين، ج1، دار الحديث، ط1، القاهرة، د ت، ص 09.

[2].عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج1، دار الإمام مالك، ط1، الجزائر 2006، ص 572.

ثم حواء ثانيا؟ وما الحكمة من خلق حواء من ضلعآدم؟ يجيب عنها المختصون في علم التفسير القرآني وتأويله.

أما ما يجب الإقرار به أن آدم الأصل في الخلق، ثم يليه خلق حواء المتفرّعة عن جسده- ضلعه الأيسر- وقد تولد عن ذلك مسألة الرّتبية في الوجود، لتعتبر كمبدأ أساسي في تنظيم الفكر وفهم الوجود، وتلك حقيقة كونية ومشيئة ربّانية.

اعتمد النّحو العربي على مبدأ الرّتبية في الوجود، لتفسير الظاهرة النحوية في اللغة العربية، باعتبار" المذكر أسبق رتبة من المؤنّث، أولى وأجدر"[1].

ومنه نلاحظ شدة التوافق، بين الحقائق الواردة في النّص القرآني والرؤية النحوية.

وتعتبر مسألة الرتبية في الوجود، من بين اهتمامات صاحب المنهج الجامع بين الفلسفة والرؤية الصوفية، محي الدّين بن عربي. وقد عدّها القاعدة الأساسية، لتفسير ظاهرة الخلافة على الأرض.

والمتصفّح كتاب فصوص الحكم[2]، يلاحظ أنه في حديثه عن الوجود، يركز فقط على آدم عليه السلام، ويصفه بالكمال دون أدنى إشارة إلى حواء.

وكأن اسم آدم يحتوي حواء، لتفرّعها عنه. إنّ آدم " قد علمت نشأة رتبته وهي المجموع الذي به استحق الخلافة. فآدم هو النفس الواحدة التي خلق منها هذا النّوع الانساني"[3].

ناقش ابن عربي قضية المرتبة في الوجود بالشرح والتحليل؛ مستنتجا أنّ المرأة خلقت متأخرة عن الرّجل، مستدلا بكلمة النّساء، وهي" جمع لا واحد له من لفظه، ولذلك قال عليه السلام: حبّبت إليّ من دنياكم (...): النسّاء ولم يقل المرأة، فراعى تأخرهن في الوجود عنه، فإن النسّأة هي التأخير"[4]

تعدّ حقيقة بدء الخليقة محورا ثابتا، تدور حوله قضايا الفكر والوجود، ومنه تنبثق القيم الإنسانية المحددة لطبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى.

يتمتع الإنسان بالقدرة على تأمل الظّواهر الكونية، وتفسيرها وتحليلها منذ القدم، وقد تبين ذلك في الأساطير، عندما حاولت الفصل في مسألة التذكير والتأنيث، انطلاقا من مبدأ الأسبقية في الوجود.

تعرض الأسطورة الإغريقية قصة بدء الخليقة، مسلمة بأصلية المذكر وفرعية

---

[1].أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، ج1، تحقيق على النّجار، الهيئة المصرية للكتاب، ط03، القاهرة 1986، ص 113.

[2].لمزيد من التفصيل والتدقيق ينظر، محي الدين بن عربي، فصوص الحكم، موفم للنشر، د ط، الجزائر، 1990..

[3].المصدر نفسه، ص 201.

[4]. محي الدين بن عربي، فصوص الحكم ، المقدمة XIII.

المؤنث. والجدير بالذكر، أنّها فضلا عن كونها قصة خرافية، لا تمت بصلة لأي دين من الأديان السّماوية، إلاّ أنّها تدخل ضمن عقيدة قدامى الأغارقة، وتحتل في ديانتهم الإلحادية مكانة ذات شأن عظيم.

إنّ القصة الإغريقية، تؤمن بميلاد الذّكر أولا والأنثى ثانيا، ما يجعلها أقرب إلى التّفكير البشري السليم، وتتوافق إلى حدّما مع الحقيقة الواردة في النصّ القرآني المتعلقة بمسألة التّراتبية الوجودية.

يعتقد قدامى الأغارقة أنّ الحيوانات خلقت أوّلا، ثم احتاج الكون إلى حيوان أكثر رقيّا، فخلق الإنسان. وليس من المعروف إن كان قد خلق من مواد مقدّسة، أم أنّه عندما انفصلت الأرض عن السماء، ظلّت هناك بعض البذور السماويّة عالقة بالأرض، فأخذ بروميثيوس بعضا منها ومزجها بقليل من الماء، وخلق منها الإنسان في صورة الآلهة.

ويروى أن هيفايستوس أمر ربّ النار العظيم، أن يمزج التّراب بالماء بأقصى سرعة، ليتحول إلى هيكل فتاة جميلة فاتنة[1].

تعارض بعض الاساطير القديمة كأسطورة عشتار، مبدأ أصلية المذكّر في الخلق وفرعيّة المؤنث، معتبرة أنّ أوّل إله للكون كان أنثى؛ فهي أمّ الاشياء، وبادئة العوالم، وحاكمة ما في السموات من فوق، وما في الجحيم من تحت، وتمثل مركز القوة الربانية[2].

نظرا لكون الأنثى مصدر الإنجاب، ورمز الخصب والعطاء، أُعتقد قديما أنّها الاصل في الخلق، وأمّ الكون أجمعه. وتروي أسطورة عشتار، أنّ الأمّ أنجبت ابنها الذي يمثل في الوقت نفسه زوجها، أي الذّكر تفرع عن الأنثى.

وتؤكد هذه الأسطورة على أوّليّة الأنوثة وتبعية الذّكورة، ضمن المؤسّسة الدّينية العشتارية، فعشتار تمثل نقطة بدء الخليقة و"هي أصل الكون، مبدأ الأشياء، عماد الحياة"[3].

نتعارض أسطورة عشتار فكريا مع ما ورد في الديانات السماوية، والنص القرآني بالتحديد، لذا لابدّ أن نصنّفها، ضمن الاعتقادات الوهمية التي سيطرت على عقل الإنسان الأول. ورغم ذلك يحتفي بها الشعراء في العصر الحديث، لتختزل في شعرهم على شكل رمز مثقل بالمنظورات الجانبية.

فأي تأثر هذا؟ رمز أسطوري، يخترق جدار الأزمنة بقوة خارقة، عبر كلمات مثّلت ألسنة الأمم. وذلك فعل محمود، ما لم يفسد الذّوق والتصور السليم، ولم يزعزع العقيدة والإيمان بالله عزوجل ووحدانيته.

---

[1].ينظر: أمين سلامة، المرأة في الميزان، دار النشر المتحدة، د ط، القاهرة، د ت، ص 12.

[2].ينظر: فراس السواح، لغز عشتار، الألوهية المؤنثة وأصل الدّين والاسطورة، دار سومر للنشر والتوزيع، د ط، قبرص 1985، ص 27.

[3].فراس السواح، لغز عشتار، ص 243.

عظّمت الأساطير ثنائية المذّكر والمؤنّث رغم بدائية العقل الانساني، لتتحول في اعتقادها إلى جدليّة كبرى، تتحكم في كل موجودات الكون، وكأن الكرة الأرضيّة تدور حول محور واحد، الذّكر والأنثى.

إنّ النّص القرآني يؤكد ذلك، في آيات بينات توضح أهمية الذكر والأنثى في الوجود، فسبحان الله، أينما ذهبنا، وحيثما تواجدنا، وكلّما وجّهنا بصرنا للتأمل، صادفتنا الثنائية وهي تنطق بقدرة الله عزوجل اللامحدودة، قال الله عز وجل: "فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ" سورة المؤمنون الآية 27.

إنّ نوح عليه السلام" أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي : ذكراو أنثى من كلّصنف الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك"[1].

تشمل ثنائية المذكر والمؤنث الكائنات الحية بأجمعها، فتتمظهر من خلال أصناف الموجودات الكونية المتباينة، في النّوع والشكل والهيئة، لذا استحقّت الثنائية التفاتة جادّة، لعل الحقائق الكونية تكتشّف من خلالها.

إنّ العقل الإنساني جبل على حتمية التأمّل الكوني، المفضي إلى التّساؤل اللاّمتناهي، بحثا عن المعرفة بمختلف أنماطها.

وابن طفيل الفيلسوف والطبيب العربي المسلم، من خلال رسالته الفلسفية – حي بن يقظان- يؤكد أنّ الله عزّوجل زوّد الإنسان بطاقة تأمليّة. تمكنه من التّمييز بين أشياء الكون، ومساءلة الوجود، واستنطاق عناصره التي تكشف عن قدرته عزّوجل، وتثبت أن الله عزّوجل الواحد الأحد.

ومنه، ليس غريبا أن تتضمن الاساطير تأملات الإنسان في الوجود، وإن تباينت اعتقاداتها حول طبيعة العناصر الجدلية المؤسسة للكون.

تعددت التصورات المترجمة لعالمي المؤنث والمذكر، إلا أنها تجمع على أن الثنائية، ظهرت حسب الخيال الإنساني في أول مظاهر الكون، لذا ارتبطت بالوجود الكوني، وتمظهرت على شكل آلهة تتقاسم فيما بينها مهام تسير نظام الكون، ورغم الإجماع على ذلك، نلمس اختلافا بين الاعتقادات الاسطورية؛ فبعضها تسند مهمة تسير القمر إلى إله ذكر، ومهمة تسير الشمس إلى إلهة أنثى. وعلى هذا الاساس ذكّرت بعض الشعوب القمر، وأنّثت الشمس كالعربية مثلا، وأخرى تؤنث القمر وتذكر الشمس لاعتبارات أسطورية، كما هو الحال في اللغة

[1].عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص 358

الفرنسية: القمر la lune والشمس le soleil .

إنّ الله عزّوجل خلق ثنائية المذكر والمؤنث، وأسند إليهما مهاما حسب طبيعة خلقهما الفيزيولوجية والنفسية، فلا يمكن أن تستمر الحياة بدونهما. غير أن التفكير السائد ما قبل الإسلام، احتقر الجنس الأنثوي معتبرا إياه عنصرا دونيا، أو بالأحرى أقل أهمية مقارنة بالجنس الذكري. وتلك الحلقة الزمنية المظلمة التي عاشها الانسان، قضى عليها الإسلام بنزول القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ. إذ أعاد للمرأة حقوقها وكرامتها، ووضح دورها المميز، فصورتها في النّص القرآني حدّد إطارها الحاوي للأبعاد النفسية والاجتماعية وغيرها بدقة عالية، موضحا دورها في المجتمع وبها تكتمل الثنائية التي أوجد الكون من أجلها.

كما أن منطق الحياة والوجود، يكشف عن المعادلة التالية: الذكر+ الأنثى= الاستمرارية في الوجود، فلو أسقطت أحد الطّرفين، تحول الكون من الوجود إلى العدم، أي كلاهما مركز قوة تزود الكون والوجود بطاقة عنوانها: الدوام والاستمرارية في الحياة.

ورغم ذلك، اختزلت المخيلة الإنسانية مسار الأنثى الوجودي، لتتحول إلى رمز تتكثف فيه معاني الحياة والإنجاب والعطاء والخصب...إلخ، فهل هذا إجحاف في حقّ الرجل؟

حاولت الفنون عبر العصور تصوير حقيقة الأنثى، ورغم اختلاف وجهات النظر، ووسائل التّعبر، إلا أنها تجمع على صلاحية قانون الوجود الأنثوي، الذي خوّلها أن تكون رمز الحياة، ونبع تتدفق منه أصناف الحبّ والحنان والعطف والخصب، إنها كلّ شيء في الوجود، إن لم تكن هي الوجود نفسه.

إنّ كلّ شيء في الطبيعة ينطق بالأمومة؛ فالشمس أمّ هذه الارض تحيطها بحرارتها، وتحضنها بنورها، ولا تغادرها عند المساء، إلا بعد أن تنام على نغمة أمواج البحر، وترنيمة العصافير والسّواقي. والأرض أمّ الأشجار والنّبات، تزوّدها بما يضمن لها الحياة.

تتربع الأنثى على الطبيعة بأسرها، وليس بغريب أن تعتقد بعض الاساطير بأنّ الله عزّوجّل جمع" الورق ونظرة الظبي وإشراقة الشمس ورطوبة الندّى وتقلب الرياح ووداعة الأرنب وصلابة الجوهر وقسوة الفهد وحلاوة العسل وحرارة النّار وبرودة الثلج، ثمّ مزج كلّ هذه الأشياء مع بعضها و خلق المرأة"[1].

وقد وصلتنا حكمة غريبة ولكنها تتسم بالمنطقية، مفادها أنّ الله عزّوجل حين أراد أن يخلق حوّاء من آدم، لم يشأ خلقها من عظام قدميه كيلا يطأها، ولا من عظام رأسه حتّى لا تسوده أو تسيطر عليه، وانما خلقها من أحد ضلوعه لتكون مساوية له وقريبة إلى قلبه.

ويبرز التّساوي جليا في المعادلة التّالية:

قوة الجسد = قوة الأمومة

تتعدم عند المرأة = تتعدم عند الرجل

[1].أمين سلامة، المرأة في الميزان، ص 32.

ولذلك آمن كثير من المفكرين عبر العصور بفرضية القوة المنبثقة عن الأمومة، وتأكدت في الأن ذاته أهميتهافي عمران الكون، حتى أصبحت المكانة العليا التي تحظى بها المرأة في كل أمة، ميزان نهضتها وعماد حضارتها. إنّ المجتمع الأسطوريّ القديم، كانت الأمّ ركيزته، لذا أسلم الرّجل القيادة للمرأة، لا لتفوّقها الجسدي بل لتقدير أصيل وعميق لخصائصها الإنسانية.وكانتبشفافية روحها، وبثقل مركزها في الكون، أقدر على التّوسّط بين عالم الشرّ وعالم الآلهة. هكذا أضحى الجنس الأضعف من جانب القوّة الجسديّة، يتبوأ عرش الجماعة، سياسيا واجتماعيا وغيرها.واقتنعت الجماعة بضرورة تسليم القيادة للأمهات[1].

رغم سذاجة التّفكير البدائي، وعدم توافقه مع ما أقرّته الدّيانات السّماوية، في تفسير الظّواهر الكونية والوجودية، إلاّ أنّ بعض المسّلمات وضّحت دور الأنثى في الكون، وأهميتها في تحقيق الاستمرارية الوجودية.فالإنسان القديم قارن بين جسد المرأة ومظاهر الكون، من حيث المميزات والوظائف. واستنتج أنّ كليهما يحمل رمز الخصب والإنجاب، لذا أسندت مهمة تسير الطبيعة إلى الإلهة الأنثى، ما جعلهم يهابون سخطها وغضبها؛ وفي ذهن العقل البدائي اعتقاد راسخ، يؤكد أنّ الأنثى أشبه بجرّة فخارية، تحتوي على نعم الحياة وأسبابها، فالرّحم يمثل المستودع الذي تختمر في ظلماته بذور الحياة، لتنطلق من بوابة الرحم[2].

يعتبر التأمل في الوجود والكون البوّابة الرئيسية، للولوج إلى عالم الإدراك المعرفي، لذا تمكن الإنسان قديما من تطبيق طريقة المقارنة، واستخراج أوجه التّشابه ما بين الأنثى ومظاهر الكون، ليتوصل إلى نتائج أثبتها النّص القرآني، وقد تمثلت فيمايلي:

1. الجسد الأنثوي:

1.1. أعماقه تتفجر بينابيع الحنان والعطف، وذلك مصدر الحياة السوية لدى الرضيع، وتعد قصة موسى عليه السلام أقوى برهان على صحة ذلك.قال الله عز وجل: "**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**"سورة القصص-الآية 10.

"يقول الله تعالى مخبرا عن فؤاد ام موسى حين ذهب ولدها في البحر إنّه أصبح فارغا، أي: من كلّ شيء من أمور الدنيا إلا من موسى".[3]

وهذا دليل على أنّ الولد يحتل مساحة كبرى في قلب الأم فكل ما في الدنيا يهون إلا فلذة كبدها، أما قوله عز وجل: "**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**" سورة القصص الآية 11.

---

[1].ينظر: فراس السواح، لغز عشتار، ص 32.
[2].ينظر: المرجع نفسه، ص 48.
[3]. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص 553.

تشير الآية الكريمة إلى أن أم موسى " أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها، فقالت لها: "قصّيه" أي: اتبعي أثره، وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد (..) عن بعيد"[1]

وتلك إشارة إلى إصرار الأم على رعاية أبنائها في كلّ الظروف، وقد تخاطر بحياتها لضمان الأمن والعطف لأبنائها.

2.1. الأنثى مصدر لتغذية الجنين وهو في رحمها، وبعد ميلاده بحليبها:قوله عز وجل: **"وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"** سورة البقرة الآية 233.

الأم إذا مصدر الغذاء الطبيعي، فحليبها يضمن للطّفل حياة معتدلة خالية من الأمراض العضوية والنّفسية.

2. الكون:

1.2. أعماق الأرض، تتفجّر ينابيع المياه التي تمثّل مصدر الحياة.قوله عز وجل: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" سورة البقرة الآية 74.

والتّفجّرمن "تفجّر الماء وذلك إذا تنزّل خارجا من منبعه.وكلّ سائل شخص خارجا من موضعه ومكانه، فقد انفجر ماء، كان ذلك ماء أو دما أو صديدا أو غير ذلك (...)

وتشققها، تصدّعها (..) وقوله: "فيخرج منه الماء" فيكون عينا نابعة وأنهارا جارية".[2]وذلك مشهد ينبض بالحياة، وفعل التفجّر يكشف عن قدرة الله عزّ وجل في جعل الأرض مصدر حياة المخلوقات جميعها.

سطح الأرض إذن مصدر تزويد المخلوقات بالمياه، كما أنّ الشمس مصدر الطاقة والغذاء.

2.2. الأرض أصل كلّ أنواع الزروع والنباتات والأشجار، والسماء يتدفّق منها الماء فيحي الأرض بعد موتها وقد ورد ذلك في قوله عز وجل: **"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ"** سورة فاطر الآية 27.

---

1. المصدر نفسه، ص 554.

2. الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه، بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني، ج1، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1994، ص 254.

مظهران من مظاهر الكون الرئيسية يتآلفان بإحكام، إذ تعرض الآية الكريمة مشهدين تنبثق عنهما الحياة، فهما رمز الاستمرارية والوجود الدنيوي، إنّهما مشهدا إنزال المطر، والإنبات (إخراج الثمرات)، في مشهد كوني بإيقاع شديد التّجانس.فحياة النبات مرهونة بالماء المنزّل، وبالمقابل تحتوي التّربة على مكوّنات حيوية أخرى، تمتزج مع الماء لتغذية ما في باطنها من حبوب وغيرها، ليخرج النبات مخترقا سطحها إلى الأعلى، وكذلك شأن رحم المرأة.

ونلمس تقابلا واضحا، بين مظاهر الكون الكبرى وخلق الإنسان في رحم المرأةفي قوله عزوجل:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ " سورة الحج الآية 05.

وتلك مقابلة معجزة بين خلق الإنسان وخلق النّبات، فكلاهما يخضع لقانون الانبثاق والخروج من الخفيّ إلى الظاهر؛ فرحم الأم مستودع تستقر فيه النطفة (ماء الرجل)، حينها تخضع لجدلية التشكيل البشري، فيولد الإنسان في قوله عز وجل: " ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ".

أمّا الأرض فمثل الرّحم مستودع تستقر فيه الحبوب بأصنافها، فتخضع لجدلية الإنبات متّخذة صفة العامودية –من الأسفل إلى الأعلى- وبذلك تتحقق عملية الانبثاق، في قوله عز وجل: " وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ " فسبحان الواحد القهّار، جعل مظاهر الكون مجتمعة بلطف في جسد الانثى.

الارض، إذن، مصدر ضمان حياة المخلوقات، لا يمكن الاستغناء عنها، كذلك الام .

إنّ المخيلة الإنسانية القديمة، كشفت عن قوّة المشابهة بين عالم الكون وعالم الانثى، حتّى وصفت بالكون المصغّر.لذا وجدنا كثيرا من موجودات الطّبيعة قد حملت اسما مؤنثا أبرزها، الشّمس والأرض والسّماء*[1]والسّحب والصّخرة والطين والعاصفة والغيوم والنجوم، ومنه نرى أنّ مظاهر الطبيعة الحاملة دلالة الخصب والإنجاب ارتبطت بالأنثى.

ولأنّ الإنسان كرّمه الله بالعقل، بمدّة بالقدرة على التمييز بين الأشياء والظواهر المحيطة به، تمكّن من طرح التّساؤل حول مسائل أرهقت فكره. وفي قضيّة الكشف عن المشابهة بين الأنثى والكون، إنجاز عظيم توصل إليه الفكر البشري قديما، ولكنّه بقي مبتورا، لأنه ظلّ حبيس الاعتقاد بأنّ الأنثى إلهة الكون، وكأنّه انطلق من المعادلة السّطحية التالية:

مظاهر الكون عظيمة، ولأنها تختزل في جسد أنثوي صغير، فإن الأنثى تمثل إلهة الكون.

* السماء اسم مؤنث وهو الغالب في لغة العرب، ولكن يجوز تذكيرها.

يعرض النّص القرآني الكريم آيات بيّنات، تثبت قوّة المخيّلة البشرية وسعتها، عندما تتجاوز المرئيات لتبحث في ما وراء الظواهر العينية، قال الله عزوجل: " وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " **سورة الأنعام-الآيات: 75-76-77-78-79.**

الملاحظ أن كلمة رأى تكرّرت ثلاث مرات متتالية وموضوعها؛مظاهر الكون الظاهرة للعيان، و" الرّؤية: النّظر بالعين والقلب"[1].

إنّ فعل التأمّل، دفع- إبراهيم عليه السلام- إلى التركيز في عمق الظاهرة الحسّية، وتلك محطّة أساسية لإثارة الخيال وتنشيطه بسرعة فائقة، فيلمس البصيرة المهيأة للجدل الذّهني، ولحظتها تنفتح بوابة الوجدان، فتتأثر النّفس وتدرك الأشياء على حقيقتها.

أسهمت الرؤية البصرية المرتبطة بالرؤية القلبية، في معاينة أهم المسائل الكونية المختزلة في سؤال واحد: من هو خالق الكون؟ ومن هو المسؤول عن تسيره وفق نظام محكم البناء؟

إنّ التساؤل الناتج عن التأمّل العقلي السّوي والدقيق، يوصل الإنسان إلى الهداية والإيمان بوحدانية الله، الأمر الذي لم توفق فيه الأساطير، بل بقيت حبيسة الرّؤية السّطحية، لأن نظرها قاصر، لذا لم تتمكن من التساؤل حول من هو أعظم من الشمس رغم إتصافها بالأفول. ولكن إبراهيم عليه السلام، بفعل التحليل المنطقي العقلاني ربط بين العظمة والحضور الدائم، فلما وجد الشمس تغيب عن الأنظار أدرك أن هناك من هو أكبر منها وأعظم من الكون كلّه، لأنّ المسؤول عن التنظيم المحكم للكون لا يتصف بالزوال. وكأن - إبراهيم عليه السلام- أجرى في ذهنهالمعادلة التالية:

- العظمة اللامتناهية تستلزم الحضور الدّائم.
- الشمس تتّصف بالزوال= العظمة في درجة الصفر.
- المتصف بالحضور الدائم والمستمر يستحق التأليه وأن يُعْبَد ولا يشرك به شيئا.

والمخيّلة البدائية كما صوّرتها الأساطير، لم تستطع تجاوز الظواهر الحسيّة، فهي أشبه بقوقعة مظلمة، ترسّخ فيها اعتقاد بأن الأنثى مسؤولة عن تسير الكون، فعشتار مثلا

[1].أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، المجلد 05، مادة ر.أ.ي، دار صادر، ط4، بيروت، 2005، ص 62.

تتحكم في أفلاكه ومداراته وكواكبه.

وهي كما أسلفنا، سيّدة الخصب وربّة الفصول الأربعة، لذا ربط الإنسان آنذاك موت النباتات بسخط الإلهة عشتار أو غيابها.

ويظهر تعظيم الأنثى في أسطورة أوزيريس أن" كهنة إيزيس، ينطلقون في منتصف ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر كلّ عام وهم يصيحون : لقد وضعت العذراء حملها، لقد ولدت الشمس"[1].

والاعتقاد نفسه، يميز التفكير البشري الساذج في العصر الجاهلي، عندما جعل الإنسان معظم آلهته إناثا، كاللاّت والعزى ومناة.

إنّ تعظيم صورة الأنثى عمّق فجوة التباين اللاّمتوازن ما بين الذات والآخر، فالكلّ متخوّف من سخط الإلهة المسؤولة عن الخصب والإنجاب. وفي اعتقادهم أن ذلك يؤدي إلى امتناعها عن العطاء فيحلّ الجدب والقحط. وتروي الأساطير انّ ظهور الآلهة الذكور ولدّ حلقة صراع لا متناهية بين الآلهة الأنثوية والآلهة الذكرية، فمن يملك القوّة والعظمة ليلغي الآخر؟

تلك معضلة وهمية، عرفها الوجود البشري إلى يومنا هذا، لذا لا بد من الكشف عن أسبابها اللاّمنطقية وتبديد الغموض الذي يلفّها ويحيط بها من كل جانب. إن الاختلاف بين الجنسين من المسّلمات البديهية، إذ لا يعدّ سبب الصّراع بينهما إلاّ أن بعض المفكرين، اعتبروا مبدأ المغايرة علّة الصّراع وحجّتهم في ذلك، أنّ "في هذه الحياة قانونان روحيان أو نوعان من الضّمير، يختلف كلّ منهما عن الأخر تمام الاختلاف أحدهما موضوع في جسد الرّجل والآخر في جسد المرأة ، لذا يسئ الرّجل تفسير أهداف المرأة لأنّه يحكم عليها حسب قوانينه هو، وبضميره هو وكأنها رجل لا امرأة"[2]

وكأن من اعتقد بذلك يدعم ما ورد في الأساطير، إذ تعرض المخيلة الأسطورية مشهد الانقلاب الذّكري ضدّ سلطة النّساء، اللّواتي كنّ يحكمن بالسّحر، كقوة مقابلة للقوة الذكرية. ويتجسّد الصّراع بين الجهة الأنثوية الأمومية والجهة الذّكرية، في "تدمير معابد الأم الكبرى وقتل كاهنتها التي ترتدي جلد افعى"[3]

وقد أشار النّص القرآني إلى حقيقة العلاقة بين الذكر والأنثى، ملغيا التصور الأسطوري السائد، عندما جعل بينهما السّكينة، في قوله عز وجل: **" هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ "** سورة الأعراف، الآية **189**.

1.أحمد كمال زكي، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، دار العودة، د ط، بيروت 1979، ص 198.

2. أمين سلامة، المرأة في الميزان، ص 36.

3.فراس السّواح، لغز عشتار، ص 143.

تشتّق دلالة "السّكن من السّكون، لأنّها نوع من اللّبث والاستقرار".[1] النفسي على وجه الخصوص، والملفت للانتباه أن كلمات الآية الكريمة تتصف بالبساطة، ولكّنها اختزلت علوما بأكملها، كعلم النّفس (الطبيعة النفسية للمرأة والرّجل)، كما أنّ الاستقرار النفسي يطرد من قاموسه الصّراع ومرادفاته، وعلم الإجتماع (طبيعة العلاقات بين الأزواج)، فالاستقرار الأسري يسقط مجال الصراع بين الأفراد ويستبدله بالتوافق والتكامل. لا يتعلق الأمر، إذن، بالاختلاف الجنسي، بل بطبيعة الرؤية، فإذا كانت سويّة ومعتدلة وتتوافق مع حقيقة خلق الجنسين الواردة في النص القرآني، أوجد التكامل بينهما وما عدا ذلك فإنّه يشحن الصّراع المتوهّم. ومنه نتوصل إلى ما يلي:

السكينة=الاستقرار= التكامل= اللاّصراع.

إنّ طبيعة الخلق تفرض قوانينها على الموجودات الكونية، وإن كانت المخيّلة الأسطورية تنزلق عن منطق الخلق الرّباني، إلا أنّها تعترف ضمنيا بضرورة التكامل بين الذّكر والأنثى. فعشتار صرّحت علانية بأنّها عاجزة عن أداء مهامها بمفردها:" لن يكون لي أن أعمل ذلك وحدي ولكن بمعونة إنكي سوف يخلق الإنسان"[2]، أي اتحاد الطرفين يولد قوّة تضمن استمرارية الحياة المتوازنة.

أشرنا فيما سبق، أن إشكالية الأصل والفرع، شكلت المحور الأساسي الذي دار حوله الجدل، في مسألة المذكّر والمؤنّث، في مختلف المجالات؛ الديني والأسطوري واللّغوي، ولو عدنا إلى عالم اللغة والكتابة، وتصفحنا ما ألفّه علماء اللغة، سنلاحظ أنّهم فصلوا في قضايا متعددة، انطلاقا من تحديد دقيق لمفهومي الأصل والفرع.

ورد في شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك أنّ" أصل الاسم أن يكون مذكّرا والتّأنيث فرع عن التّذكير، ولكون التّذكير هو الأصل استغنى الاسم المذكّر عن علامة تدلّ على التذكير، ولكون التّأنيث فرعا من التذكيرافتقر إلى علامة تدّل عليه"[3].

تمّ إجماع علماء العربية، أمثال سيبويه وابن جنّي، على أنّ الأشياء كلّها أصلها التّذكير وما التّأنيث إلاّ فرع لذلك. وتلك مسلّمة تثير تساؤلات عديدة أبرزها، كيف تمّ تشكيل منطق اللغة؟

إنّ اللغّة صناعة إنسانية، بل هي اشبه بلعبة مسلية، أو يمكن اعتبارها" كرجل فضفاض متفائل له مناشط متعددة، يتلاعب بما لديه من أدوات دون خطة محكمة"[4]. فلا

---

[1].أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزّمخشري، الكشّاف عن الحقائق غوامض التّنزيل، ج1، دار الكتاب العربي، ط03، بيروت 1407هـ، ص 127.

[2].فراس السّواح، لغز عشتار، ص 30.

[3].ابن عقيل، شرح ألفية بن مالك، دار حروس للنشر والتوزيع، ط1، لبنان، د ت، ص 620.

[4].محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللّغة، دار النّهضة العربية للطباعة والنشر، د ط، بيروت، دت،ص 60.

يمكن أن تدخل اللّغة عالم الحسابات المنطقية الدقيقة، ومن جهة أخرى لابدّ من تفادي التّأويلات والتّفسيرات المؤديّة إلى تشويه المفاهيم والتّصورات، المؤسسة لعالم الكتابة، والتركيز على تسمية الأشياء بمسمّياتها. إنّ جمهرة النحاة، اهتموا بمسألة المذكر والمؤنث، وأصدروا أحكاما، لم تكن نتاج تسليط الاعتبارات العقلية على أوضاع اللّغة، بل هي قوانين مستنبطة من استقراء الكلام، أي بتتبّع الأشياء لمعرفة حقيقتها، فاعتبروا أنّ ماله علامة فهو فرع، وما افتقر إلى علامة فهو أصل.

والنّحويون بذلك، طبّقوا القاعدة العلمية المشتركة بين العلوم جميعها، بحيث إذا اقترنت ظاهرتان وجودا وعدما، فلا بدّ من اعتبار إحدى الظاهرتين علّة وسببا.

لقد عدّوا المذكّر سببا في وجود المؤنّث، لأن الفرع ينعدم بغياب الأصل، وهذا ينطبق مع المشيئة الإلهية في الخلق، رغم انّ تعليلات النحويين الأوائل ولا سيما ابن جني، لغوية بحتة مدارها على أسباب لسانية، يبيّنها الحسّ قبل أن يدركها الذّهن.

غير أنّ مسألة أصلية المذكّر وفرعية المؤنث، لم تبق متقوقعة في الجدل اللّغوي واللّساني، بل تعدّته إلى الجدل الاجتماعي- محور السلطة والتسلط- والفكري والفلسفي، من خلال أطروحة مستعصية تتعلق بجدل الوجود؛ الانصهار في الآخر ونفي الذات، أم إثبات الذات ومواجهة الآخر؟

إذا كان المذكّر يمثّل الأصل في إنتاج الكلام، فإن الأنثى الكاتبة تّجد نفسها امام معضلة محيرّة فعلا تلخص في سؤال واحد: هل تستند إلى الأصل فتكتب بلغة المذكّر؟ أم إنها تتجاوز ذلك لتثبت سلطتها في الكتابة بلغة الأنثى، فتصطدم بجملة من العراقيل والتحديات، لأن المنطق الوجودي يفرض مبدأ استناد الفرع إلى الأصل.

وإذا أرادات الكتابة الأنثوية تحويل الفرع إلى أصل، في عالم الإبداع الأدبي والفني، لابدّ من رفع شعارالتّحدي لتحويل الحلم إلى حقيقة، والدخول إلى إمبراطورية اللغة من بابها الواسع.

إنّ الذكر بسط يديه على اللّغة منذ القدم، فهو صانعها في زمن تعرضت الأنثى للتهميش والإقصاء، بسبب اعتقاد ظلّ سائدا مردّه إلى قصة بدء الخليقة؛ فلما خلقت المرأة من ضلع الرّجل، اعتبرها جزء من ثقافته فحاول احتواءها والتعبير عنها بلغته، وبذلك أسندت إليه سلطة الكتابة.

لاحظنا أن كيف أنالإلهة عشتار في الأسطورة الإغريقية، التي مثّلت الجنس الأنثوي وأدت دورا كبيرا في خلق الكون وتسيره، كانت محطّ إذلال من طرف الآلهة الذّكور، إذ حاولوا القضاء عليها وعلى جنسها، فحطموا المعابد الأنثوية وجعلوا المعبد الذّكري رئيسيا. والتّفكير ذاته سيطر على عالم الكتابة، لتحتل الكتابة الذّكرية قلعة اللّغة.

بحث بعض الباحثين والمفكرين في علّة ذلك، واستنتجوا انها تتعلق بمسألة اختلاف

وظائف الجنسين، وكأن" الأنثى إلى حد أكبر من الرجل، هي ضحيّة النّوع"[1].

تحضرني حلقة من حلقات حياتي الدراسية؛ لما كنت في الصفّ الأول أساسي، وفي درس من دروس المحادثة، علّقت المعلمة على السبورة مشاهد ثابتة، لأشخاص يمثلون أفراد العائلة، وطلبت منّا استنطاق ما نراه، وكنّا نردد: الأم في المطبخ تحضّر الغداء، والأب يجلس على الأريكة يقرأ الجريدة، وما عدا ذلك فهو فوضى.عبارات ظلتراسخة فيذهني دون أن أدرك لحظتها، أنها تترجم ثقافة أمّة بأكملها، تحاول عبر دروسموجّهة للبراءة أن تبعد الأنثى عن عالم الثقافة والكتابة، ما يزيد المسألة تعقيدا.

لقد أثبت الرّجل تفوّقه لامتلاكه سلاح الحضارة- الثقافة والكتابة-لأن"النساء معرّفات بالطبيعةأو مرتبطات بها بشكل رمزي، إذا ما قورنّ بالرّجال المعّرفين بالثقافة.فالثقافة على أي مستوى-أيّة ثقافة- تؤكّد ذاتها على أساس تفوقها على الطبيعة، وليس تميّزها عنها. أمّا هذا الشعور بالتميز والتفوق، فيعود بشكل رئيسي إلى القدرة على تغيير الطبيعة، وذلك بتهيئتها اجتماعيا ثم تثقيفها"[2]، الفكرة ذاتها وردت بصور شتى في عالم الأساطير؛ من محاولةإسقاط النّظام الإجتماعي الأمومي، وصياغة نظام إجتماعي ذكوري، تكون المرأة جزء منه.

ولكن المرأة لم تستسلم لذلك، وسعت جاهدة لاسترجاع حقها في الكتابة بقلمها، رافعة شعار التحدي من خلال عدّة مؤلفات أثبتت وجودها عبر الزمن، أبرزها حكايات ألف ليلة وليلة. إذ تعدّ نموذجا بارزا يجسد بداية محاولة استرجاع المرأة حقّها في التّعبير عن مواقفها.

ويعد إصرار شهرزاد على الزّواج من الملك شهريار، دليل على بداية الدّفاع عن الجنس الأنثوي من الضياع، وبسط سيطرتها على المجتمع الذّكري، ممثّلة دور الطبيعة الغامضة المغلقة، فكانت في حكاياتها أشبه بمظاهر الطبيعة من رياح واعاصير.

لعبت شهرزاد مع الملك لعبة الزّمن، بذكاء خارق وحيل جيدة الحبك، لتضع حدّا للصراع القائم بين الملك والعذراوات: وتثبت للجنس الذّكري عبقرية المرأة، فتفسح المجال أمام الفكر الأنثوي لتشييد أرضية صلبة، عليها يتأسس صرح عال للثقافة الأنثوية.

كما أنّ اهتمام الأدباء والدارسين العرب والغرب على حدّ سواء، أمثال جوته ودورنيه ومارك توين وهاملتون وطه حسين...إلخ، بليالي شهرزاد وعدم اعتبارها مجرّد حكايات للتّرفيه، دلالة على بزوغ نجم الثّقافة الأنثوي، ويؤكد ذلك فوليتر، عندما صرّح بأنه لم يصبح قاصّا إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة[3].

---

[1].تركي علي الرّبيعو، العنف والمقدّس والجنس، المركز الثقافي العربي، د ط، الدار البيضاء 1994، ص 146.

[2].المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3].ينظر: مصطفى عبد الغني، شهرزاد في الفكر العربي، دار الشروق، د ط، القاهرة، 1985،ص 23.

أعطىالإسلام المرأة حقوقها كاملة، موضّحا دورها في المجتمع وأهميتها في نهضة الأمم، فقد أرجع إليها حق الحياة الذي سلب منها في العصر الجاهلي، محذّرا في الآن ذاته من ظلمها في قوله عز وجل:**"وإذا الموءودة سئلت (8) بأي ذنب قتلت(9)**.سورة التكوير الآيتان:08 و09.

أشارت الآية الكريمة إلى محاولة الاقصاء الكامل للأنثى،" والموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسّونها في التّراب كراهيّة البنات، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أيّ ذنب قتلت ليكون ذلك تهديدا لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذاً؟ (...) وسئلت أي: طالبت بدمها"[1].

أثارت كلمات الآية الكريمة ثلاثة محاور أساسية، للحفاظ على حقوق المرأة:

1- حق الحياة، ومنع الطرف الآخر من سلبها ما منحها الله لها.

2- معاقبة الظالم الذي يعتبر الأنثى مخلوق لا قيمة له.

3- حق المرأة في المطالبة بما خوّله الله لها في هذا الوجود، كالمشاركة في الحدث الثقافي عموما.

وتعتبر عائشة-ﷺ- نموذجا بارزا، لخصت صورة المرأة المسلمة، فقد أسهمت في رواية أحاديث النبي- ﷺ- والحفاظ عليها من التشويه والضياع. وكتب الصّحاح تثبت ذلك، إذ تضمنت أحاديث كثيرة في مواضيع شتى، روتها عائشة- ﷺ- في زمن كان صوت المرأة غير مسموع في قبيلتها.

فصل النص القرآني والسّنة النبوية في قضية الصراع القائم بين الجهتين الذّكرية والأنثوية، وفق قانون الاعتدال في النّظر إلى الأشياء إلا أن المرأة ظلّت تنادي بقوة لاسترجاع حقّ ممارسة فعل الكتابة.

إنّ بقاء المرأة حبيسةالقلم الذّكري، أمر تعسفي ولكنه منطقي، لأنه يوافق مسلمة الرجل صانع اللغة والمتربع على عرشها. وما المرأة إلا فكرة تفنّن رجال الفن في تصويرها، لذا من الصعب تغيير شكل اللّغة، التي مضى على تأسيسها آلاف السنين من قبل المؤسسة الذّكرية، ورغم ذلك عمدت المرأة إلى التّحدث بلسان الرجل، ما جعل البعض يعتقد أنها بذلك خضعت لسلطة الرجل في اللغة.

غير أن منطق الكتابة يكشف سعيها من خلال استعارة لغة الرجل إلى إنشاء لغة الأنثى، لتثبت وجودها وتسمع صوتها.

هكذا أصبحت المرأة في جيل مي زيادة ونازك الملائكة، صوتا مستقلا عن صوت الرجل، فحملت على عاتقها مسؤولية التعبير عن الأنثى، إذ لم تعد مجرّد أداة يعبّر بواسطتها، بل أصبحت ذاتا تبدع وتؤلف.

---

[1].عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير، تفسيرات العظيم، ج4، ص 712.

ولكن ذلك لم يكن هينا فقد شنّت الإمبراطورية الذكرية عليها حربا شعواء، متّهما إياها بالضعف في التأليف والسرقة الأدبية وما شابه ذلك، بهدف إسقاط القلم الأنثوي، ولكن إصرار الانثى على إنشاء كيان خاص بها، دفعها لمواصلة المسيرة رغم صعوبتها.

تمثل كتابات أحلام مستغانمي صورة ناطقة للغة متحررة من الهيمنة الذّكرية لقد أضحت الفاعلة في اللغة وذاتا نصوصية، في محاولةجادّة لاستئصال لغة الرّجل من ذاكرتها الطويلة المدى، واستبدالها بأخرى تمدّها بالكلمة الأنثوية، وبالمعنى المؤنث والأنوثة.

إنّ قوة الأنثى في الكتابةوالإبداع الفنيّ، أجبرالإمبراطورية الذكرية على الاعتراف بصلاحية الرّؤية الأنثوية في معالجة الظواهر الإنسانية.ورواية ذاكرة الجسد تؤكد صحّةذلك، إذ تشكّل "وعيا بالمفقود، ولذا تأتي كمثال قوي ودقيق على الكتابة النّسائية، وعلى المجاز الأنثوي في مواجهة الفحوله ومجاراتها، كما تأتي الرواية تتويجا لجهود عظيمة في مجال الكتابة النّسائية، واقتحامها عوالم اللّغة بخطابها السردي والشعري"[1].

هكذا أضحت الأنوثة، فعلا من أفعال التّأليف والإنشاء والقراءةوالتلقي، وأصبح لكل طرف حق الكتابة، بشكل سويّ ومعتدل دون هوس أو تعصّب.

[1].عبد الله محمد العنامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء، 1996، ص 181.

قائمة المصادروالمراجع

1. القرآن الكريم.
2. ابن كثير (عماد الدين أبي الفداء إسماعيل الدمشقي)، تفسير القرآن العظيم، الأجزاء 01، 03،04، دار الإمام مالك، ط1، الجزائر 2006.
3. ابن جنّي (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، ج1، تحقيق على النّجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط03، القاهرة، 1986.
4. ابن عربي(محي الدّين)، فصوص الحكم، موفم للنشر، د ط، الجزائر، 1990.
5. ابن منظور(أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم الإفريقي(المصري)، لسان العرب، ج5، دار صادر، ط4، بيروت 2005.
6. ابن عقيل، شرح ألفية بن مالك، دار حروس للنشر والتوزيع، ط1، لبنان، د ت.
7. الرّبيعو (تركي علي)، العنف والمقدس والجنس، المركز الثقافي العربي، د ط، الدّار البيضاء، 1994.
8. الزّمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد)، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج1، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت، 1407هـ.
9. زيدان (محمود فهمي)، في فلسفة اللّغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د ط، بيروت، د ت.
10. زكي (أحمد كمال)، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، دار العودة، د ط، بيروت، 1979.
11. السيوطي(جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وعبد الرحمن بن أبي بكر)، تفسير الجلالين، ج1، دار الحديث، ط1، القاهرة، د ت.
12. سلامة (أمين)، المرأة في الميزان، دار النشر المتحدة، د ط، القاهرة، د ت.
13. السواح (فراس)، لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار سومر للنشر والتوزيع، د ط، قبرص 1985.
14. الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، هذّبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني ج1، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت 1994.
15. عبد الغني (مصطفى) شهرزاد في الفكر العربي، دار الشروق، دط، القاهرة، 1985.
16. الغذّامي(عبد الله محمد)، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، دط، الدار البيضاء 1996.